اللسانيات التاريخية المقارنة
قراءة في لغات الجزيرة العربية ولهجاتها

الدكتور: هشام خالدي
جامعة أبي بكر بلقايد – تلمسان –

مقدمة:

إن علم اللسانيات التاريخية المقارنة يبحث في العلاقات التاريخية واللغوية، بين اللغات التي تنتمي إلى أسرة واحدة. و إذا كانت اللغة الأم التي انبثقت منها الأسرة الواحدة غير موجودة لانقراضها، فإن هذا الفرع من اللسانيات يبحث عن الأصل، ويحاول أن يضع صورة تقريبية له، وذلك بالكشف عن الجوانب المتشابهة بين اللغات التي تنتمي إلى هذه الأسرة. كما يبحث هذا العلم في قوانين التطور اللغوي، تلك التي بواسطتها نستطيع أن نتتبع ظاهرة صوتية أو صرفية أو تركيبية أو دلالية، بين اللغات التي تنتمي إلى هذه الأسرة.

كما يبحث في ما يسمى بالرواسب اللغوية، ولما كان كثيرون من الباحثين العرب قد سلّموا بصحة النظريات عند المستشرقين الذين تجاهلوا الأصل التاريخي الحقيقي للغات التي انبثقت من قلب الجزيرة العربية، فقد نركز في هذا البحث على الأصل العربي لهذه اللغات وأهم اللهجات المنبثقة عنها.

اللغات العربية القديمة:

في سنة 1781 قام العالم النمساوي شلوتزر، بدراسة عبرية العهد القديم، وقارن في دراسته بين بعض الظواهر العبرية، وما يُقابلها في الآرامية التي بدا له أثرها واضحا، في العبرية التي دوّن بها العهد القديم، وكان شلوتزر أول من أطلق هذه التسمية، على الفصيلة اللغوية. وتبنى الباحثون الغربيون هذه التسمية بالإجماع وتسمى هذه اللغات بالسامية.

كما تعرض هذا التقسيم للنقد، وأصبح من اللازم إيجاد تسمية جديدة لفصيلة اللغات هذه. ولا شك أن اللغة العربية القديمة هي التي كان يتكلم بها أهل الجزيرة، قبل هجرتهم إلى أرض الرافدين والهلال الخصيب، ثم تفرّعت منها مختلف اللهجات التي خرجت من الجزيرة[1].

لقد تفرعت هذه اللغات من أصل مشترك، يفترض فيه أنه كان متداولا في الجزيرة العربية، في عصور موغلة في القدم، قبل أن تصبح كل واحدة منها لغة مستقلة. وليس ثمة

شك في أن الأصل الذي تفرعت منه هذه اللغات هو العربية في أقدم صورها التاريخية. وقد جاء في لسان العرب :" ويكون التعرب المقام بالبادية. ومنه قول الشاعر:

مــن المــوت رمــلا عــالج وزود تعــرب آبــائي فهــلا وقــاهم

و قول أيضا:" أقام آبائي بالبادية، ولم يحضروا القرى"[2].

ويقسم العلماء لغات الجزيرة إلى قسمين هما:

1/ **القسم الشرقي:** ويشمل الأكادية التي وصلت إلينا مكتوبة بلهجتين رئيسيتين هما: البابلية والأشورية، ومن هذا القسم الآرامية الشرقية.

2/ **القسم الغربي:** ويشمل مجموعتين من اللغات هما:

أ. مجموعة اللغات الغربية الشمالية: وتشمل الآرامية الغربية، والكنعانية بلهجاتها.

ب. مجموعة اللغات الجنوبية: وتشمل العربية بلهجاتها، والحبشية.

وفي ما هو آت بيان لتاريخ هذه اللغات، وسماتها الأساسية، ولهجاتها:

أولا: اللغة الأكادية

لقد كان تأثير الأكاديين لغويا كبيرا بدليل أنه يوجد الكثير من المفردات وردت في لغة المدونات السومرية [3]، كما كانت اللغة الأكادية لغة المكاتبات الرسمية والشخصية، ولغة التدوين التاريخي، كما كانت معربة، رابا كاملا في مراحلها الأولى. و قد أخذ هذا الإعراب ينحصر شيئا فشيئا إلى أن سقط في المراحل الأخيرة من حياة هذه اللغة. ولا شك أن وجود الإعراب في هذه اللغة دليل على أن العربية الأم، التي اشتقت منها الأكادية/ كانت معربة على النحو الذي نعرفه في عربية القرآن الكريم.

لهجاتها: اعتمادا على المدونات الأكادية. يمكن تقسيم هذه اللغة إلى ثلاث مجموعات رئيسية من اللهجات هي:

1/ **اللهجة الأكادية القديمة:** بهذه اللهجة كتبت أقدم المدونات الأكادية، ومنها تفرعت اللهجات الأخرى، وأقدم صورها قريب جدا من أقدم صور العربية، إذ هي إحدى لهجاتها أصلا، طرأ على هذه اللهجة تأثر باللغة السومرية. وقد استمرت حتى أواخر الألف الثالث قبل الميلاد.

2/ **اللهجات البابلية:** و هي أربع لهجات رئيسية نذكرها بإيجاز شديد:

- **اللهجة البابلية القديمة:** ولهجة بلاد بابل في العهد البابلي القديم استمر أربع قرون (2000 ق م – 1600ق م). وفيها نجد آثار اللغة الأمورية. وبهذه اللهجة دونت قوانين حمورابي، وقانون أشنونا ونصوص أدبية ودينية وغيرها.

- **اللهجة البابلية من النصوص المدونة:** بهذه اللهجة حكم السلالة الكشية(1600ق م- 1200ق م). وفي آخر أيام هذه اللهجة بدأ الإعراب يأخذ طريقه إلى الاختفاء من

الأكادية. وقد دون الأكاديون بهذه اللهجة بدائع ملاحمهم وأدبهم. ففيها كتبت ملحمة جلجامش، وقصة الطوفان.

- **اللهجة البابلية الحديثة:** انتشرت هذه اللهجة في المدة الواقعة بين عامي(1000ق م- 600ق م). وفيها تظهر آثار اللغة الآرامية، كما أنه لا وجود للحركات الإعرابية في هذه اللهجة.

- اللهجة البابلية المتأخرة: انتشرت هذه اللهجة في المدة الواقعة بين عامي (626 ق م- 390 ق م). وقد تزايد أثر الآرامية فيها إلى أن سقطت البابلية تماما[4].

3/ **اللهجات الآشورية:** يطلق مصطلح الآشورية على اللهجات التي كانت مستعملة في بلاد آشور. وقد انتشرت هذه اللهجات قبل الألف الثالث قبل الميلاد. ويميز العلماء بين ثلاث لهجات آشورية رئيسية هي:

- **اللهجة الآشورية القديمة:** انتشرت هذه اللهجة في بداية العصر الآشوري القديم، أي بن عامي (2000 ق م- 1750ق م). وقد كتبت بها نصوص أدبية ودينية، ورسائل رسمية.

- **اللهجة الآشورية الوسيطة:** تعود النصوص التي كتبت بهذه اللهجة إلى النصف الثاني من القرن الثاني قبل الميلاد. وبها كتبت نصوص قانونية وأدبية تحمل تأثيرات بابلية.

- **اللهجة الآشورية المتأخرة:** يظهر في النصوص التي كتبت بهذه اللهجة المجازات، والاستعمالات اللغوية والأدبية العالية التي لم تكن تجري على ألسنة الناس بالضرورة في حياتهم اليومية. وقد انتشرت هذه اللهجة في المدة الواقعة بين عامي(1400 ق م- 600ق م). وكتبت بها قوانين، واتفاقيات ومعاهدات ومراسلات ونصوص دينية وأدبية.

ثانيا: اللغة الكنعانية

وهي لغة القبائل الكنعانية التي خرجت من جزيرة العرب، واستقرت في بلاد الشام خاصة. فهم إذن عرب صليبة، فقد حاول المستشرقون تحويل الحقائق التاريخية، فذهب بعضهم إلى أنهم من سيناء وذهب آخرون إلى أنهم من أريتيريا [5]، ويذهب بعض المؤرخين إلى أن الكنعانيين هم الذين اخترعوا الحروف الأبجدية. و بذلك يكونون قد نقلوا الكتابة من الرموز المسمارية إلى الأبجدية التي أخذها عنهم اليونانيون، ثم انتشر التفكير بوضع أبجدية اللغة عند الأمم الأوروبية.

لهجاتها: انقسمت الكنعانية إلى عدد من اللهجات، هذه أهمها:

1/ **الأوغاريتية:** اكتشفت الأوغاريتية قرب مدينة أوغريت (رأس الشمرا)، القريبة من مدينة اللاذقية، في شمال الساحل السوري، وقد تبين بعد تحليلها انها قريبة من اللغة العربية، وتبين أن هذه الكتابات تمثل إحدى اللهجات الكنعانية. وترجع هذه الكتابات إلى أواسط الألف الثاني قبل الميلاد(سنة 1400ق م).

والأوغاريتية لغة معربة إعرابا كاملا، بحركات الرفع والنصب والجر، ومنها كلمات وألفاظ ليس لها وجود في أخواتها من لغات الجزيرة العربية إلا في عربيتنا.

2/ **الفينيقية:** وهي لهجة الكنعانيين الذين سكنوا الساحل السوري، من شماله إلى جنوبه. وقد كان اليونانيون هم الذين أطلقوا عليهم هذا الاسم. انتشرت الفينيقية مع مطلع الألف الأول قبل الميلاد، حتى القرن الأول قبل الميلاد، (1000ق م- 100ق م). وقد كتبت الفنيقية بخط أبجدي، على خلاف ما هو معروف في الأكادية، وربما كان الفينيقيون قد تأثروا بالأوغاريتية، فأخذوا عنهم فكرة الكتاب بالأبجدية[6].

3/ **المؤابية:** هذه اللهجة عي لسان القبائل العربية التي استقرت في شرق نهر الأردن، قبيل القرن التاسع قبل الميلاد، وقد دوّن الملك المؤابي الحروب التي دارت بينه وبين بني إسرائيل، والمعلومات حول هذه اللهجة قليل جدا.

4/ **العبرية:** حتى نضع الأمر في نصابه الصحيح بشأن هذه اللغة، ينبغي أن نضع نصب أعيننا الحقائق الآتية،

على الرغم من حرص اليهود، على أن يخرجوا الكنعانيين من نسل سام بن نوح، بسبب حقدهم عليهم، فإن اليهود يحرصون جدا على تصنيف العبرية ضمن السلالات السامية. بل إنهم يجعلونها أقدم هذه اللغات. وأكثرها تمثيلا لام يسمونه السامية الأم.

و لكن العبرية لغة مستقلة بدأت تتشكل في القرن السادس قبل الميلاد، أي بعد عهد موسى عليه السلام بثمانية قرون. وبعد عصر إبراهيم عليه السلام بألف وثلاثمائة سنة[7].

مما سبق يتبين لنا أن العبرية هي أحدث اللغات التي يسمونها سامية، في النشوء والاستقلال، ولكن اليهود لهم شأن عظيم في تزوير الحقائق التاريخية.

ثالثا: اللغة الآرامية

الآرامية هي لسن الأقوام الذين نزحوا من الجزيرة العربية، إلى أرض الرافدين وسورية، ولا نعرف تاريخ نزوحهم، وكن المعروف أنه قد أصبح لهم كيانات ودول صغيرة، على حدود الدولة الآشورية، منذ بداية القرن الأول قبل الميلاد، وقد ساعد هذا على انتشار لغتهم في بلاد الشام وأرض الرافدين. وساعد على ذلك أيضا الخط الآرامي البسيط الذي ابتكروه.

ولما انتشرت المسيحية تنصر بعض الآراميين، وصاروا يتسمون سريانا، نسبة إلى (سورية)، يميزون بذلك أنفسهم من الآراميين الذين ظلوا على وثنيتهم.

لهجاتها:

انتشرت الآرامية في مناطق واسعة، من أرض الرافدين، وبلاد الشام وامتدت حقبا طويلة من الزمان. ومن الطبيعي تبعا لذلك، أن يكون لهذه اللغة لهجات متعدّدة. ومنها:

1/ **السريانية:** المعقل الأصلي لهذه اللغة هو مدينة الرها وما حولها. وهي اليوم لغة العبادة للطائفة السريانية. وقد تفرعت هي نفسها إلى لهجات، فمنها السريانية الشرقية التي يتكلم بها الكلدانيون في العراق، والغربية التي يتداولها السريان في سورية، بل إن أهل قريتي صيدنايا ومعلولا في سورية يتكلمون السريانية في حياتهم اليومية[8].

2/ **المندعية(المندائية):** وهي لهجة الصائبة المندائيين الذين يعيشون في جنوب العراق.

3/ **السامرية:** وهي لهجة الطائفة السامرية في مدينة نابلس، وهذه الطائفة لا تؤمن إلا بالأسفار الخمسة فقط من العهد القديم.

4/ **التدمرية:** هي لهجة مملكة تدمر. وقد انتشرت في تلك المملكة بين القرنين الأول والثالث قبل الميلاد، تشبه هذه اللهجة لهجة الأنباط، غير أنها متأثرة كثيرا باللغتين اليونانية واللاتينية.

5/**النبطية:** هي لهجة الأنباط الذين كانت عاصمتهم (بترا) المنحوتة في الجبل في جنوب الأردن، وترجع النقوش التي عثر عليها حتى الآن إلى المدّة الواقعة بين القرن الأول قبل الميلاد، والرابع بعد الميلاد.

6/ **الحضرية:** الحضرية – بفتح فسكون- هي آرامية مملكة الحضر التي كانت عصمتها مدينة الحضر التي تقع جنوب غرب الموصل بالعراق، وقد امتد حكم هذه المملكة بين عامي(100ق م- 241م) تقريبا. وقد وجد عدد كبير من النقوش المكتوبة بهذه اللهجة. وبينها وبين كلمات لغتنا العربية الفصيحة شبه كبير، ومرد ذلك إلى أن من بني قضاعة كانوا يعيشون في تلك المملكة.

رابعا: اللغة الحبشية

عندما يطلق هذا اللفظ فإنما يراد به الجعزية هذه، ليست هي اللغة الوحيدة من أصول عربية في الجبشة، فالأمهرية من أصول عربية كذلك. غير أن هذه الأخيرة تأثرت كثيرا باللغات الإفريقية.

حافظت الجعزية على الإعراب، كما حافظت عليه عربية شمال الجزيرة العربية، وأقصد بها العربية الباقية، وهذا دليل على أن الإعراب قد تحدّر إلى هاتين اللغتين، من اللغة الأم التي كانت في الجزيرة، وهي العربية هي أقدم صورها.

وقد ذهب بعض العلماء إلى أن الحرف الجعزي مشتق من الحرف السبئي[9] لوجود شبه كبير بينهما.

خامسا: السبئية.

على الرغم من أن السبئيين أقاموا حضارة عظيمة، مازالت آثارها شاهدا على عظمتها، فإن المعلومات قليلة نسبيا أقدم النقوش السبئية المعروفة حتى الآن لا يتجاوز القرن الثامن قبل الميلاد.

وتكتب السبئية بالحرف المسند، وقد سمي بذلك لأنه في الغالب يستند إلى خطوط تشبه الأعمدة، وفي الأبجدية السبئية كل حروف المعجم الموجودة في العربية الباقية. بما في ذلك الأصوات المطبقة (الصاد والضاد والطاء والظاء)، وأصوات الحلق(العين والحاء).

سادسا: العربية الشمالية

يقصد بمصطلح العربية الشمالية، لغة الأقوام الذين عاشوا في شمال الجزيرة العربية وأوسطها، وقد سادت العربية الشمالية، في عصور متأخرة فاندثرت السبئية والمعينية من الجنوب وحلت محلّها عربية الشمال. وظل الأمر كذلك إلى أن أصبحت هي الوارث النهائي لتراث العربية، وعلى الرغم من الأهمية البالغة التي لهذه اللغة، فإنه لم يصل إلينا من نقوش ومدونات تفصح عن تاريخها، شيء يتجاوز القرن الخامس قبل الميلاد.

لهجاتها: يقسم العلماء لهجات العربية الشمالية إلى قسمين رئيسيين، أحدهما العربية البائدة والعربية الباقية. أما اللهجات البائدة فأهمها الصفاوية، وهي أقرب هذه اللهجات إلى العربية الباقية.

وتنسب هذه اللهجة إلى العرب الذين كانوا يسكنون جبل الصفاة شرق دمشق، وتعود النقوش التي دونت بها إلى القرن الثاني، والثالث وأوائل القرن الرابع الميلادي.

ومن لهجات العربية البائدة لهجة ثمود قوم سيدنا صالح – عليه السلام- . وكانوا يعيشون في منطقة المدائن.

واللهجة اللحيانية هي لسان قبائل لحيان التي سكنت شمال الحجاز وأقدم نقوشها لا يتجاوز القرن الرابع قبل الميلاد[10].

أما العربية الباقية فهي العربية الفصيحة التي نزل بها القرآن الكريم. ويعود أقدم نقش وجد مكتوبا بها إلى القرن الرابع قبل الميلاد، وهذا لا يعني أن عربيتنا ليست موغلة في القدم، بل يعني أننا لا نجد شيئا مكتوبا نعتمد عليه في بيان تاريخ النشأة، ومراحل تطوّرها. غير أنه مما لا شك فيه أن هذه اللهجة هي أقدم اللهجات إلى العربية الأم، وأقربها إليها، والإعراب نفسه شاهد على ذلك، فإن الأكادية وهي من أقدم لغات الجزيرة معربة، مما يدل على أن الإعراب قديم جدا، وليس طارئا على اللغة، ولا وافدا إليها، ولا كان في مرحلة متأخرة من حياة اللغة، كما يتوهم بعض المستشرقين وبعض الباحثين المستغربين من العرب.

وهذا يصدق تماما على الدراسات اللغوية عند العرب، التي كان لها من ثراء العربية ونضجها، و من اختلاف اللهجات فيها، وما يرفد به القرآن الكريم والشعر من مادة أولية مهمة، و ما كان عليه ولاة الأمر والدارسون من استعداد عقلي ونفسي، وعليه فقد اختلف الدارسون في تحديد تاريخ نشأة اللغة العربية، فجماعة تحدّدها بتاريخ أول نقش عثر عليه مما

يصح أن تنسب كتابته إلى العربية، وأخرى أهملت ذلك ومالت إلى تحديدها بأول نص شعري جاهلي وصل إلينا[11].

وعلى هذا فالعربية التي نعرفها اليوم لا يرجع تاريخها إلى أبعد من النصوص الجاهلية التي تضمنت الفكر العالي والحكمة ومكارم الأخلاق، وهي اللغة التي سادت الجزيرة العربية قبل الإسلام بقرنين من الزمن تقريبا، مستخدمة في الشعر والخطب والأمثال استخداما يمكن أن نسميه موحدا بين الشعراء القبائل المختلفة وخطبائها، وإن وجدت هناك فروق لغوية يسيرة تشير إلى خلافات لهجية معينة. فالمنشئ العربي كان يعمد إلى هذه اللغة الموحدة متى أراد أن ينشئ، وقد يهملها مستعملا لهجته الخاصة عند التّحدّث والمخاطبة.

وأوضح مثال على هذه الوحدة اللغوية هو الشعر ولعل السبب في ذلك يرجع إلى طبيعة الشعر وقيود تفعيلاته وقوافيه، إذ تقل هذه الوحدة وضوحا في النثر لعدم وجود مثل هذه القيود فيه[12]، يُضاف إلى ذلك أنه لو كانت هناك لهجة منحرفة عن سائر اللهجات لصعب على منشئها إخضاعها لهذه القوانين العروضية الصارمة، لذا بقيت لغة الشعر لغة فنية يقصدها معظم العرب قصداً .

الخاتمة:

وبناء على هذه القراءة المتواضعة في لغات الجزيرة العربية ولهجاتها نخلص إلى عدّة نتائج وهي:

- اختلاط الدراسات اللغوية في مرحلة نشأتها، وظهور أثر ذلك في مصنفات الأوائل من الدارسين، ثم استقلال هذه الدراسات بتطور وسائل الدراسة.
- تباين الأسس المنهجية وتطوّرها في دراسة اللغة، من الاختلاف في الأطلس اللغوي للاستقراء حتى طغيان الفلسفة والمنطق على نشاط هذه الدراسة.
- أصالة الدراسات اللغوية عند العرب، وعدم محاكاتها للدراسات الأجنبية التي سبقتها، إذ يتمثل ذلك في الدراسات الصوتية وعلم اللهجات والنحو.
- طول باع العرب في دراسة اللغة، ذلك لأنهم كانوا على قدر كبير من الدّقّة والعمق في تناول الموضوعات اللغوية.

هذه أهم النتائج التي توصلت إليها في هذه القراءة الموجزة، وهناك أيضا ما هو أقل أهمية مما ذكرت تركته للقارئ يرجع إليه ويقف عليه.

المصادر والمراجع المعتمدة:

1/ إبراهيم أنيس: في اللهجات العربية، المطبعة الفنية الحديثة، القاهرة، 1965

2/ أحمد سوسة، العرب واليهود في التاريخ،ط6، دمشق، العربي للطباعة والنشر، (د،ت).

3/ إسرائيل ولفنسون: تاريخ اللغات السامية، بيروت، دار القلم، .1980

4/ سمير شريف استيتية: اللسانيات (المجال، الوظيفة، والمنهج)، عالم الكتب الحديث، الأردن، .2005

5/ عامر سليمان: اللغة الأكادية. الموصل، دار الكتب للطباعة والنشر، .1991

6/ فراح سواح: الحدث التوراتي والشرق الأدنى القديم. دمشق، دار علاء الدين، .1999

7/ ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، 1955.

الهوامش

(1) أحمد سوسة، العرب واليهود في التاريخ ط6، دمشق، العربي للطباعة والنشر، (د،ت) ص 89.

(2)اللسان مادة (عرب)

(3) عامر سليمان: اللغة الأكادية. الموصل، دار الكتب للطباعة والنشر، 1991، ص38.

(4) عامر سليمان: اللغة الأكادية، ص42.

(5)فراح سواح: الحدث التوراتي والشرق الأدنى القديم. دمشق، دار علاء الدين،1999، ص 247.

(6) فراح سواح: الحدث التوراتي والشرق الأدنى القديم، ص248.

(7)أحمد سوسة: العرب واليهود في التاريخ ط6، دمشق، العربي للإعلان والنشر، 1986،ص321.

(8) أحمد سوسة: العرب واليهود في التاريخ، ص 323.

(9)إسرائيل ولفنسون: تاريخ اللغات السامية، بيروت، دار القلم، 1980، ص256.

(10) سمير شريف استيتية:اللسانيات (المجال، الوظيفة، والمنهج)، عالم الكتب الحديث، الأردن، 2005،ص594.

(11) إبراهيم أنيس: في اللهجات العربية، المطبعة الفنية الحديثة، القاهرة، 1965، ص33- 35.

(12)إسرائيل ولفنسون: تاريخ اللغات السامية، ص 206.